لحظة الصفر

قصة عن بوريس جورباتوف

Boris Gorbatov

« لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رجفة عندي للصدر . هنا الحقد في صدري ، الحقد الصبيّ الذي لا ينطفئ . ان قلبي ينتقل . هذه معركتنا الى الموت . هناك أدهب »

أيها الرفيق ! لقد قرىء علينا الأمر الآن . في الفجر سنكون في المواقعة . سبع ساعات حتى الفجر .

كان الوقت ليلاً . وبعيداً فوق الرؤوس تلألأت الكواكب . خيم السكون . كان قصف المدافع قد سكن . وأغفى جاري بغفاءة هنيئة . وفي ركن من الأركان ، انبعث همس ما . هناك المراقب يسير الى أحدهم كلمات .

في الحياة قد ات من الصمت لها طابع عجيب ، ومن الممكن أن تُسْتَشعَر .

وها أنا ما سأذكر هذه الليلة — ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٤١ . سأذكر القمر وهو يتسلق على منحدرات « الدون » وقد بدت الجزم برامشة . كأنما أصابتها البُرْدَاء . سأذكر كيف أغفى زميلي ورائح في نوم عميق ، وعلى الربى وفوق الخنادق ومواقع قذف النار ، خيم سكوت رهيب . سكوت في أضاعيفه العاصفة . السكوت الذي يسبق المواقعة .

كنت مستلقياً في الخندق ، وقد أخفيت مشعلي الصغير بطرف ردائي المبلل لأكتب اليك هذا ..... كذلك كان الملايين من المحاربين مثلي منتشرين من محيط الجد الشمالي إلى البحر الأسود ، يستلقون كما أنا مستلقٍ ، وفي نفس هذه الليلة ، وعلى الأرض المرطوبة ، ينتظرون تنفس الصبح والهجوم ، يفكرون في الحياة وفي الموت ، وفي ما ينتظرهم من حظ .

أيها الرفيق ! ان كلاً منا يريد ان يعيش طويلاً . وأنا أريد أن أتبصر ، وأتنفس وأكون قديراً على الذي ، وأرى السماء من

فوق رأسي . غير أني لا أريد أن أعيش أي لون من ألوان العيش ، فلست ممن يهمهم أن يعيشوا وكفى — وأن يوجدوا وحسب .

في الليل الماضي زحف رجل الى خندقنا آتياً من « الضفة الأخرى » . لقد هرب من الفاشيين . قدم زاحفاً بائساً واهنين وذراعين انتزع عنهما الجلد وسالت الدماء . فلما رآنا ، نحن أهله وعشيرته ، طفق يبكي ، ومعصي يشد على أيديها ويهزهما ، وكأنه أراد أن يعانق كل من لاقاه . كان وجهه يختلج ، وشفتاه تهتزان ، فأعطيناه بعض الخبز والزبد والطماق . فلما فرغ من وجبته هدأ روعه وأخذ يقص علينا اشنع القصص عن الالمان . حدثنا عن السلب والتعذيب والسرقة . فلما سمعناه أخذ دمنا يغلي ، وقلوبنا تزداد حقداً .

رأيت ظهر الرجل . ثبتت عيناي فيه فلم تريا شيئاً آخر كأنما هما قد علقتا به . لقد كان منظره أبلغ من كل كلام .

كان قد مضى شهر ونصف شهر على هذا الرجل تحت سلطان الفاشيين ، فتقوّس ظهره كما لو كان فقاره قد كسر ، أو كأنه أجبر على أن يمشي منحنياً نحو الارض ، أما عضلات ظهره فكانت تتشنج وتتكمش ، كأنما هي تترقب توالي الضربات القاسية . كان منظره ينم عن أنه رجل صلبت ارادته ، أو أنه وقيق مستعبد .

صاح به أحدهم اعتدل . قوّم كتفيك وردهما الى الوراء ، أيها الرفيق . انك في عشيرتك .

رأيت ، كما لو كنت أرى في صفحة جلية واضحة ، ما هو مقسوم لي . حياة بظهر مكسور ، ثم الاسترقاق والعبودية .

أيها الرفيق ! خمس ساعات قد بقين ثم يتنفس الصبح . بعد خمس ساعات أكون في غمار المعركة . كلاّ ليس من أجل تلك الربوة التي أمامي سوف أحارب الفاشيين . كلاّ . ستكون الحرب لاغراض أعظم وأضخم . ستكون الحرب من أجل من سوف يكون التصرف في مصيري : هتلر أم أنا ؟

حتى هذه البرهة يتصرف كلانا — أنت وأنا — في مصير نفسه ويتسوّد عليه . ونحن إننا نختار نوع العمل الذي نعمل ، والصنعة التي نتعلمها ، والوظيفة التي نشغلها ، ونتزوّج من المرأة التي نحبها . أمة حرة في أرض حرة . إنما ننظر للمستقبل بشجاعة وبطولة . الملكة كلها أمّ لنا جميعاً . في كل بيت أصدقاء ورفقاء . وكل وظيفة من وظائف العمل محترمة مبجلة ، والعمل في ذاته بطولة ومجد . لقد علمت ان كل طن من القمح نخرجه من باطن الارض ، فيه الشرف والصيت والكفاء . وكل أردب من القمح يحصد ، يضاعف من ثروتك ، التي هي ثروة أسرتك .

ولكن ! لقد أتى الفاشيون . سيصبحون

المقدّرين لحظك ونصيبك في الحياة. سيحطمون يومك، ويسلبون غدك. سيتحكمون في حياتك وسكنك وأسرتك. سيطردونك من بيتك. نعم وسوف تطرد مقصوم الظهر، طاوياً تحت المطر، ملقى بك في الأوحال. نعم. قد يسمحون لك بأن تعيش. ذلك بأنهم في حاجة إلى دواب الحمل. سوف يستعبدونك. ولكنك ستكون عبداً سيئ الحظ مقوّس الظهر. ستتحصد أردب القمح. ولكنه سيذهب اليهم وتُسلّى متضوراً من الجوع. وستخرج الطن من الفحم. غير انهم سيستولون عليه صارخين: «أيها الخازر الروس: انكم لا تحسنون العمل». ستظل في أعينهم دائماً ذلك الروسيّ الحقير: حيوان من نوع أخسّ سيحملونك على أن تنسى لغتك ولغة آبائك. اللغة التي حلمت بها ورأيت فيها رؤاك. اللغة التي عبرت بها عن حبك لمن أحببت. سيجبرونك على أن تتكلم لغتهم، وسوف يزأون بك وأنت ترطن بلغة أجنبية بعيدة عنك.

الفاشيّ!!

سيطأ بقدمه أحلامك ويُثقل على آمالك انك قد أمّلت وحلمت بأن ابنك إذا كبر واستوحل فسيكون عالماً، أو مهندساً ذا خطر وقيمة. ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعلماء من الروس! ألم يجمعوا علماءهم أنفسهم في قطعان أودعوها محلات الاعتقال؟ انهم لا يريدون إلاّ دواب عاملة من دواب الحمل. وسوف يساق ابنك تحت سلطان الفاشيين، ناسياً طفولته وفتوته ومستقبله.

كثر ما دلّلت ابنتك الحبيبة وأحطتها بعنايتك. كم مرة حنوت عليها وأشفقت بها واحتميت فوقها أنت وزوجك وهي في غفوتها الملائكية، وحلمتما بسعادتها. ولكن الفاشيين لا يرغبون في بنات روسيات نظيفات جميلات. يردنهنّ في بيوت الدعارة ليكنّ متعة لذوي اللعصان السمر من أبنائهم. أترضى بأن تكون موضع نظرك ومحل أملك... ابنتك «مارونكا»، حمامتك المحبوبة..... بغيّاً.

أنت تفخر بزوجك. كل من في القرية يحبها ويحترمها... أوكسانا الجميلة. كلنا في حسدك عليها سواء. ولكن في العبودية لا يكون للنساء اختيار. انهنّ يكبرن قبل الأوان. ان زوجتك «أوكسانا» ستصبح عجوزاً شمطاء مقوّسة الظهر.

أنت تبجل والديك. ألم يكونا السبب في انك وجدت وربيت ونشأت؟ وأوصلك هذه! ألم تداعبك على أن تهيئ لها حياة سعيدة هنية هادئة، وشيخوخة شريفة محترمة. ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعجائز الروس. فالمعمّرون لا يعملون. إذاً فيجب أن يموتوا جوعاً، ولهذا فسوف لا يعطون والدتك شيئاً من القوت الذي تحصله بكد ساعدك.

قد يتفق أن تحتمل كل هذا ، فلا تموت . غير أنك ستصبح حاملاً متواكلاً أعيش عيشاً كله عماء وجوع وحزن .

اني لأرفض أن أعيش هذا العيش . كلاً . لن أحيا هذه الحياة . لأجدر بي أن أموت من أن أوجد هذا الوجود . أفضل عندي حربة في صدري ، من قيد في عنقي . كلاً أخلق بي أن أموت شجاعاً ولا أعيش عبداً ذليلاً أو جباناً حقيراً !

أيها الرفيق ! ثلاث ساعات بقين قبل أن ينتفس الصبح . ان مصيري في يدي . مصيري كائن في سنان حربتي المرهف . مصيري ومصير أسرتي ووطني وقومي .

أيها الرفيق ! ساعتان قبل أن ينتفس الصبح .

تطلعت خلال الظلام بعيني رجل شعر باقتراب الوقعة وترقب الموت ، فنظر بعيداً واخترق الحجب . ومن خلال ليالٍ طوال وأيام أطول ، بل ومن خلال شهور أنظر أمامي ، ومن فوق جبال من الأحزان والآلام ، فأرى النصر ماثلاً . سوف ننالـه . سنخوض اليه أنهاراً من الدماء ممزوجة بالحزن والأسى والعذاب . سنخوض اليه مآسي الحرب ودواهيها . ولكننا سنصل إلى النصر ، إلى النصر الحاسم الفاصل على العدو . لقد قاسينا من أجله واحتملنا كثيراً . سوف نفوز .

تذكر أيامنا قبل الحرب . لقد ظلّ حيلنا هذا وسيف الحرب مصلت من فوق رأسه . عشنا وعملنا ودللنا زوجاتنا وربينا أولادنا . ولكن لا يجب أن ننسى أن كل هذا انما كان من أجل دقيقة واحدة . هنالك في الناحية الأخرى من تخومنا يجثم وحش مفترس يستعد لمضغنا ، فيشحذ أظافره ويحدّ أنيابه الدامية . لقد كانت الحرب جارنا القريب . كانت أنفاس الأفعى المجلجلة تسمم حياتنا وجهادنا ، بل وحبنا نفسه . نحن فزعين . وانتظرنا :

هاجنا الوحش . بات في أرضنا . تدور الآن أقسى المعارك وأدمى الوقائع . حرب إلى الموت . والتفاهم مستحيل فلا اختيار إذن . فلنطعن ونقوّض كل قائم لنقضي مرة واحدة وإلى الأبد ، على الوحش الهتلري . وحتى يثوى آخر فاشيّ في قبره العميق ، لن ينكشف عن صدرنا ذلك الكابوس الذي يخنقنا . ثم هدوء شامل . هدوء لا يتخلله جلبة . هدوء النصر ، سيظلل رؤوسنا . وهنالك سوف نسمع ، أيها الرفيق ، لا حفيف أشجار الغابة الرحبة الجميلة وحده ، بل سوف نسمع العالم يرسل أنفاس الراحة ، ويتم هواء الأمل . سوف نسمع أنفاس الانسانية تتردد هادئة وصافية .

سوف تدخل المدن والقرى المحرّرة رعب ما يكون الشامل — سكون الموت

شعلها الفرح والسرور . هنالك سيرتفع الدخان مرة أخرى من مداخن المعامل الشيدة — هنالك الحياة ، سوف تدب مرة أخرى . حياة سعيدة كاملة أيها الرفيق حياة عظيمة ثمينة في دنيا حرة . حياة تسودها أخوة الشعوب .

من أجل تلك الحياة يهون الموت . إنه لن يكون موتاً . إنما هو الخلود .

***

أخذ الصبح يتنفس أيها الرفيق . صبح خجول أسمر الإهاب . بدأت الأشباح تتبين لم تلح لنا الحياة من قبل في ثوب أبهج . انظر كيف تتسم هضاب الدون أمامنا . انظر كيف تلمع التلال الطباشيرية تحت أول شعاع يشق الأفق ، كأنها جبال من فضة .

نعم . أن للحياة قيمة ما . ولكن قيمتها في أن نرى النصر كيف ينال ، إذ ذاك أضم رأس ابنتي الصغيرة إلى صدري بين تنايا معطفي الكبير ، راضياً وخلي البال . إني إنما أعيش من أجل أغراض كثيرة . ولذا فأنا ذاهب الآن إلى المعركة لأحارب لأجل الحياة . فاذهب من أجل حياة طيبة أيها الرفيق ، ولن أعيش لأكون عبداً . فاذهب من أجل سعادة أولادي . من أجل سعادة وطني ، أمي الكبرى . من أجل سعادتي . إني أحب الحياة . وسوف لا أبددها . اني أحب الحياة . ولكنني لا أرهب الموت . اني أفهم من الحياة أن أعيش شجاعاً ، وأموت شجاعاً

الفجر ! !

بدأت المدافع الثقيلة تجلجل . وستار النار سوف ينتشر . وبعد برهة تذهب في الثمرات .

أيها الرفيق ! من فرق هضاب « الدون » التي هي هضابي ، أوصلت الشمس أشعتها الذهبية . شمس المعركة .

واني لأقسم أيها الرفيق بحق جلالها اني سوف لا أتراجع . فاذا أصابني مكروه فسوف أموت في الصفوف . واذا أحيط بي فسوف لا أسلم نفسي . لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رحمة عندي للعدو . هذا الحقد في صدري ، الحقد العميق ، الناري الأنفاس . ان قلبي ليشتعل . هذه معركتنا ل الموت »

هنالك . أذهب